مقدمة

بقلم الأستاذ شوقي بغدادي

يبدو هذا الكتاب، وكأنه لا يحتاج إلى مقدمة. إنه بحد ذاته مقدمة لحديث آخر أبعد عن الطاقات الإبداعية الفنية لدى الناس عامة، وأهل جبل العرب خاصة حين تكون عقولهم وأرواحهم طليقةً من القيود كيف تصنع المعجزات. وإن لا... فكيف نصدق هذه الإحصاءات التي يقدمها هذا الفنان المدهش (سلمان البدعيش) في كتابه هذا عن تاريخ النهضة الفنية عندهم في الجبل، والذي بلغ ذروته من خلال تاريخ نادي الفنون الجميلة، وما ربّى وغذّى هذا النادي من مواهب جميلة نوعاً وكماً لأسماء ما يزال كثير من أصحابها أحياء يرزقون شواهد على عهد ذهبي خارق !

الكتاب إذن أشبه ما يكون بسجل توثيقي للوقائع الفنية الجميلة لتاريخ أثير على قلوب الناس، أين كانوا ودون أن يتدخل الكاتب في تفسير الأسباب والنتائج لماذا يبدع الناس وفيم يصمتون عن الإبداع، تاركاً لنا أن نفهم من وراء الشواهد الحية هذا المغزى البعيد.

حدث هذا عبر مائتين وخمسة وسبعين عاماً تبدأ بعام (١٧٠٠) وتتوقف عام (١٩٧٥) !.. فإذا كانت البدايات تمثلت في الأغاني الشعبية الريفية، والعزف على الآلات البدائية كالشبابة والمجوز والدف، فقد تطورت في السنين التي تلت، فأضيف إليها ما يمثل

الإبداع الخاص بأهل الجبل كما في (حبل مودع) و(رقصه وزفة العروس). والعزف الخارق على الربابة الذي أدهش الجنرال ديغول حين زار السويداء في أواخر أيام الانتداب الفرنسي، وكيف مع بداية الخمسينيات تم التعرف على الآلات الموسيقية الأخرى كالبيانو الوحيد الذي كان يستخدم في بيت المطربة صاحبة الصوت الخارق الأميرة أسمهان وزوجها الأمير حسن الأطرش، ثم آلة العود، إلى أن حضر لتدريس الموسيقى في مدارس السويداء من دمشق الأستاذ محمد كامل القدسي الذي ترك تأثيراً بالغاً في نشر علوم الموسيقى وفنونها بين طلابه، وتأليف الفرق الموسيقية الواسعة، ثم كيف جاء بعده الأستاذ صميم الشريف، الذي عمق في نفوس الطلاب معاني التلحين الشرقي الحديث مثل أغاني أم كلثوم للسنباطي خاصة، وحب الموسيقى السنفونية الغربية مما دفع عدداً من الطلاب إلى متابعة دراستهم الفنية في المعاهد العليا للموسيقى في القاهرة، وكيف تخرجوا منها بشهادات وكفاءات مدهشة، وكيف في الميدان المسرحي تطور المسرح من تقديم التمثيليات في الميادين العامة، إلى الصالات المسرحية، إلى أن غدت لديهم فرق مسرحية بالغة القدرات، ومتكاملة الاختصاصات، فقدمت مسرحيات عالمية، ومحلية، تعجز عن تقديمها الفرق المحترفة، إلى أن تمركز هذا النشاط في نوادٍ فنية متعددة كان أهمها (نادي الفنون الجميلة) الذي تأسس عام ١٩٥٩ وانتسب إليه عدد كبير من الموهوبين في مختلف فروع الفنون، كالمسرح، والموسيقى، والعزف، والغناء، والرسم، والنحت،

والمحاضرات الثقافية.... ويكفي بالفعل مراجعة التاريخ الحافل لهذا النادي، حتى تأخذ الإنسان الدهشة الكبيرة: كيف استطاع هذا النادي أن ينجز كل تلك الأنشطة الرفيعة المستوى طوال أحد عشر عاماً، ثم كما جاء في آخر سطر في هذا الكتاب: (توقف عن النشاط عام ١٩٧٠، وطويت بذلك صفحة مشرفة من تاريخ المحافظة الفني..) !..

لا شك أن سلمان البدعيش قد أنجز عملاً جديراً بالاحترام والانتباه العميقين كأمثولة حية عن البشر في منطقة معينة، حين يفرحون بالحياة، فيقدمون المعجزات ولكن المغزى يتجاوز بالتأكيد أهل الجبل وحدهم، إلى البشر أجمعين كي يقول لنا: إن الإنسان خلق كي يغني، ويعزف، ويرقص، ويرسم، ويقول الشعر، لا ليأكل ويشرب ويتناسل فقط، وإنه بالطلاقة، والفرح، يغذي روحه وجسده ويعبر حقاً عن إنسانيته..

مرحى لك يا سلمان البدعيش... لقد حرضتنا على التفكير حقاً فيما وراء السطور والأرقام، وهذا كافٍ كي نرفع القبعة لك إعجاباً. !.

شوقي بغدادي

دمشق ٢٠٠٤/٢/٩